

النزاع بين الروحانيين والماديين

للدكتور فضل أبو بكر

موقوفين على أهل الدين فاشتد الخلاف ودب الحقد في نفس العلماء كما خرج بعضهم على الكنيسة والدين ، وأكبر مثل لأولئك الخوارج المرتدين كان العالم الرياضى الفيلسوف «لابلاس» الذى تشرف بالمثل بين يدى جلالة الأمبراطور نابليون الأول لأبحانه القيمة فى علم الفلك ومؤلفه «الميكانيكا السماوية La Mécanique Celeste» فهنا الأمبراطور على اجتهداه وقال له مندهشاً مستفسراً «أراك لم تذكر شيئاً عن الخالق ولم تعجده فى جليل صنمه !!» فأجابه لابلاس على الفور «ما كنت يا مولاي فى حاجة إلى مثل هذا الفرض» Sire, je n'ai jamais eu besoin de cette hypothese

من هنا ينبت لنا الفرق الشاسع بين المسيحية فى ذلك الوقت وبين الإسلام فيما يتعلق بتداعيه وسمة صدره إزاء العلماء والفلاسفة الذين لم يلاقوا من رجال الدين تقيفاً ولا اضطهاداً إلا القليل بل كانوا على العكس محل احترام وإعجاب الكثيرين كما رعام الملوك والأمراء ورغماً عما ادعاه كذباً وتمويهاً للحق بعض المؤرخين الغربيين بأن العرب عند ما دخلوا الإسكندرية فى القرن السابع حرقوا كنوز العلم والفلسفة والفنون من مخلفات الأغريق التى كانت تجم بها مكتبتها الفريدة وتكنظ بها فى ذلك الحين؛ غير أن بعض المنصفين من مؤرخيهم نفوا تلك التهمة وبرأوا العرب من جنابة لم يرتكبوها، وأثبتوا بأن الرومان وخدمهم لما دخلوا الإسكندرية فى القرن الأول قبل الميلاد هم الذين بددوا تلك الكنوز وعذبوا بنفائسها.

ذكرنا فيما تقدم بأن عهد النهضة العلمية كان حقاً العصر الذهبي خطلت فيه العلوم والمعارف الإنسانية خطوات واسعة كما تحرر فيه العقل البشرى — لحد كبير — من ربة القيود التى كبلته حيناً من الدهر.

تقدم علم الكيمياء والطبيعة والرياضيات والفلك منذ ذلك الحين ، ومازالت فى تقدم مطرد — تقديماً غير وجه الأرض وما عليها وكانت نتيجة ذلك حضارتنا الراهنة التى هى وليدة تطبيق تلك العلوم .

وقد نهض الإنسان بملئ الطبيعة والكيمياء إلى درجة مكنته من تحطيم القرة واستخدام القوة الهائلة الناتجة عن ذلك .

أثارت ظاهرات الطبيعة فضول الإنسان الأول وراعته عواذيه فأطلق لخياله المنان ومن بعد ثم شرع يشهد من قريحته البدائية وتفكيره الساذج يحاول نمليلاً لتلك الظاهرات والوصول إلى حل بعض طلاسم الوجود .

ينشد حلا يروى عطاش نفسه الظمأى ووجدانه الحائر ، ويرضى فى الوقت نفسه ولحد ما كبرياءه كحيوان بلغ درجة من التطور العقلى والجسمى ما جعله ياقب بسيد المخلوقات ، وهو اقب ناله بمجدارة واستحقاق .

غير أن سيد المخلوقات قد عاش فى ظلمات من الجهل ، وأسدت بينه وبين نور المعرفة حجب كثيفة حالكة ، ولم يبد أمام ناظره بصيص من نور أو وامض من برق إلا متأخراً جداً بالنسبة لبدأ خلقه كائنات — ولا أقول ككائنات — كما يحدد ذلك على وجه التقريب علم «الأنثروبولوجيا» وكما تدعم ذلك متحجرات «الجيولوجيا» وحفائر «الأركيولوجيا»

كان لهد ليس بالبعيد يعتقد فى سيطرة الأرض وبظنها بساطاً ممتداً إلى ما لا نهاية له بساطاً لا حراك فيه ؛ وكان جهله بالسما وشمسها وكوكبها أشد من جهله بالأرض التى يعيش فوق أديمها وذلك إلى أوائل القرن السابع عشر ، حتى جاء «جاليل» «فنيوتن» و«لابلاس» فيما بين منتصف القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، فأثبتوا كروية الأرض ودورانها حول الشمس وقانون الجاذبية ، ونهضوا بعلم الفلك ووضعوا له أسساً وقواعد علمية متينة ، كما أسس العالم الفرنسى «لافوازييه» قواعد الكيمياء بعد ما فقد آراء القدماء فيما يتعلق بالاحتراق «والتأكسد» خاصة . كما ظهر غيرهم من العلماء ، وكان عصرهم هو عصر النهضة العلمية خطأ فيه المخططات السارد فى جميع فروعه . لقى الكثير منهم تقيفاً واضطهاداً بل وتمديداً من رجال الدين ورؤساء الكنائس ، وذلك لجوردهم أهل فى ذلك الحين وسطعية تفكيرهم وضيق أفقهم ؛ كذلك كان العلم والمعرفة فى ذلك الحين

والجهول ما هو إلا خضم عنيد تغلب عليك وهزمك تكبره وإن كنت في الوقت نفسه تشمر نحوه بشيء من العناء !!
وقف العلم وأسرار الطبيعة في حيرة من أسرها بسبب الجدل الدائم المحتدم بين الماديين السمين أنفسهم بالواقعيين ، وبين الروحانيين ، وذلك من عهد سقراط إلى يومنا هذا .

وقد كان أكبر حجة للروحانيين المثاليين عند الأغريق هو « أفلاطون » بلا شك . وكان يعجد الروح والعقل بقدر ما كان يحتفل المادة ويحط من قيمتها . كان يؤمن بخلود الروح ويعتقد بأن الجسد ما هو إلا سجن وقيود وأصفاد تكبلها . والروح — كما يعتقد — أزلية لا بداية لها ولا نهاية ، وقد عاشت قبل أن تحل بالجسم كما ستبقى وتخلد بعد فناءه ، وأن جوهر الأشياء وحقيقتها لا يعرف عن طريق الحس والمشاهدة ، وإنما الوصول إلى الحقيقة يأتي عن طريق هبة علوية روحانية يمكن تلمسها وترويضها عن طريق الجدل المنطقي والتأمل العميق ، وهو ما يميز الفيلسوف — الذي هو لا غيره — القادر القدير على حكم الدولة حسب قوانين مثالية توحى بها العدالة ويعلمها المنطق السليم .

يشترك أفلاطون في آرائه تلميذه وخليفته من بعده « أرسطو » الذي نجح في تدعيم آراء أستاذه بحجج قوية عن طريق المشاهدة والتجارب ، ومن هنا كان أقل مثالية من أفلاطون وأقرب منه إلى الواقعية والمادية ، كما امتاز أرسطو بآرائه في مسألة التطور التي أولاها الكبير من عنايته . أما عن كبار الماديين عند الأغريق فنذكر أهمهم وكبيرهم « ديموقريط » الذي كان يعتقد بأن المادة تتكون من ذرات متناهية في الصغر وهي في حركة دائمة سرمدية ، وأن تلك الذرات غير قابلة للتجزئة أو التخطيم ، وكان يعتقد في مادة الروح وتركيبها من ذرات مشابهة لذرات المادة ، كما أن حقيقة الأشياء لا تعرف إلا عن طريق الحس والمشاهدة .

ولما كان يعتقد في مادة الروح فقد نقي عنها الخلود وهاجم آراء أفلاطون مهاجمة قوية فيما يتعلق بأزلية الروح .

ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين إلى أن ظهرت البينة المبررة بأخبارها ، ومن بعد ذلك المسيحية بقسيسها ، وشن رجال الدين من الطائفتين حرباً ضد الماديين ، يستنكرون فلسفتهم

قوة — كما يقول ملادواها — إذا سخرت في الصناعة أغنته عن الفحم والبتروول وغير ذلك من المواد الخام اللازمة لتوليد القوة وأعطته من الإنتاج أضعافاً مضاعفة لما تأتي به تلك المواد ، كما أنها إذا استخدمت أداة للحرب والشر عصفت بالعالم ومن عليه وما عليه وجملة قاعاً منصفاً وعليقاً مأكولاً .

غير أن علم الحياة لم يخط كما خبط تلك العلوم وذلك لتعقيده وومورة مسلكه شأن كل ما يتعلق بالحياة ، فهو لنز الوجود وسر الخلق ! فالإنسان المكشف المخترع لآلات وأجهزة بلغت من الدقة والإنقان شأواً بعيداً ، هذا الإنسان عينه تراه في الوقت نفسه عاجزاً أمام العجز عن خلق أدنى المخلوقات الحية ! ! خلق كائن مركب من خلية واحدة مثل « الأميبا » أو « البكتريا » مع أنه يعرف « تحليلاً » وبدقة تامة المواد والعناصر التي تتركب منها ولكنه يعجز « تمثيلاً » عن أن يهبها الحياة ! !

فلنزل الحياة وجهل الإنسان بنفسه ككائن حي حير الفلاسفة من عهد سقراط إلى يومنا هذا ، وهو ما حدا بسقراط أن يكثر من القول « اعرف نفسك » وهو بيت القصيدة من فلسفته والمحور الذي تدور حوله رحاها . وهو هو الذي أعيا الخيام وجعله يهرب من ميدان الجدل ، ويحتمى بالاطلاس والكاس يفرق فيهما همومه وحيرته ، ويستوحهما لمعرفة السر الرهيب ! وهو ما ألقى راحة المعري حيرة وشكا كان إزاءهما في كرور ؟ فانظر إليه حين يقول :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من ججاد
ومنها أيضاً :

حار أمر الإله واختلف الناس فداع إلى ضلال وهاد
يقول هذا وربما يطمئن إلى ما يقول حيثما فيماوده الشك
وتفتابه الحيرة أحياناً فيناقض نفسه بنفسه كما يذكر ذلك في شعره وتأملاته ، ومن هنا كانت بليته وعذاب نفسه .

وقد روى عنه أنه كان « نباتياً » ينف عن اللحوم ويرى في أكلها قسوة من الإنسان على الحيوان ؛ وربما كان سبب ذلك عقدة نفسية ومركب نقص مصدره إكبار الحياة في شخص الأحياء !! الحياة التي هزمته لنزها وأعياء سرها : فالإنسان يكبر — من حيث لا يشعر ولا يريد — ما يدق عنه وما يجهله

العمق فضلا عن عمقه — بوقع في الحيرة والشك — وهما بضيان إلى المادية والسلبية .

والخلاصة كما يقول كَت هي أن العقل البشرى مهما سما وانسمت مداركه لا يمكنه أن يصل إلى معرفة الكثير من الأسرار والقوى الخفية في هذا الكون ؛ ولا يقصد بذلك أن هذا المعجز يجب أن يشل من تفكيره وبوقعه في اليأس والاستسلام بل على الإنسان أن يكثر من التأمل ويجد في التفكير ألا يكون أخفاقه — كما هو الحال مع بعض الفلاسفة والعلماء — سبباً لتبرمه بالخالق ونكرانه له . ولنتأمل في قول الخالق نفسه : « وما أوتيتهم من العلم إلا قليلا » وكما يقول الفيلسوف الإنجليزي « هربرت اسپنسر » : « من درس الطبيعة دراسة مستعجلة سطحية أغوته وقادته إلى الشيطان ، ومن درسها يتعمق وروية سمحت به وأوصلته إلى الخالق » .

فضل أبو بكر

بنة فاروق الأول السودانية بفرنسا

(باريس)

مجلس مديرية الفيوم

(إدارة الهندسة القروية)

يعلن عن حاجته إلى مساعدى
مهندسين من الحاضرين على دبلوم مدرسة
الفنون والصناعات الملمكية (قسم العمارة
أو البدنى) أو ما يعادلها للتميين في
وظائف من الدرجة السابعة .

فعلى من يرغب الالتحاق بإحدى
هذه الوظائف أن يقدم طلباً على استمارة
رقم ١٦٧ ع . ح برسم حضرة صاحب
المرزة رئيس مجلس مديرية الفيوم — الإدارة
الهندسية القروية — وتحدد يوم ١٥ بولية
سنة ١٩٤٨ آخر ميعد لقبول الطلبات .

٩٦٣٩

ويحرمون تماثيلهم ، فأفل نجم الماديين إلى منتصف القرن السابع عشر حيث بدأت النهضة العلمية فمادت المادية إلى الميدان من جديد وأهم الفلاسفة الماديين في ذلك العهد هو بلا شك « اسبينوزا » الذى كان من أصل يهودى برتغالى ، ولجأت عائلته إلى هولندا حيث ولد وعاش فيها .

تأثر « اسبينوزا » لحد كبير بفلسفة « ديكادرت » وألف كتاباً شرح فيه آراءه في الفلسفة « والمتافيزيقيا » وقد ثار عليه رهبان اليهود وطردوه من حظيرة دينهم على أثر مؤلفه « الدين والسياسة » .

وفلسفة « اسبينوزا » المادية فيها كثير من الغموض ، بل والتناقض في بعض الأحيان وهالك ملخصها :

المادة — في اعتقاده — شئ قائم بنفسه له خصائص ومميزات بواسطتها نصل إلى معرفة المادة . أما المادة ككائن — شئ أو غير شئ — فهذا ما نبهله وهو سر المادة نفسها ، ويقصد بذلك المادة الكبرى أى الإله .

الإله — هو المادة نفسها والكائن اللانهاى ، ولكنه ليس بخالق الكون ، وما نسميه بالخلوقات ما هى فى الواقع إلا أنواع مختلفة ومحدودة لمادة لا حد لها ولا نهاية هى مادة الله .

أما الروح فعلى فى نظره جزء من الجسم وفى وحدة معه ، وهى الجزء الماقل الحساس ، ورفهاً عن هذه الوحدة فالروح لا تؤثر على الجسم تأثيراً مباشراً كما أن الجسم لا يكون له مثل هذا التأثير المباشر على الروح ، وإنما هناك تحدث تغييرات وانفعالات فى الجسم يقابلها ما يشابه ذلك فى الروح فى نظام وتناسق تام .

ومن أكبر الروحانيين المتألمين فى منتصف القرن التاسع عشر ، نذكر الفيلسوف « أوجست كَت » مؤسس الفلسفة الإيجابية « Positivisme » وهى خليط من الدين والفلسفة والسياسة والاجتماع .

يرى « كَت » أن الثقافة الفكرية يجب أن تكون مؤسسة على دعائم قوية من الدين والمتافيزيقيا والفلسفة الإيجابية ، كما أنه يرى من الأجسدى لعلماء الطبيعة أن يكتفوا فقط بوضع قوانين لعلومها ويصفوا ما يشاهدونه من ظاهراتها وما بين ذلك من تشابه وتناظر بدلا من التعمق فى معرفة الأسباب والقوى الخفية المؤدية لذلك وألتي تدق من إدراكهم فى معظم الأحيان ؛ لأن مثل هذا